ظاهرة التطابق بين الفعل وفاعله في اللهجات الحديثة
ـ بين اللهجات العربية القديمة واللغات السامية ـ

بقلم : الدكتور عبد الكريم مجاهد
كلية الدعوة وأصول الدين/عمان

المشهور في العربية الفصحى أن الفعل يجب أن يحافظ على صيغة الإفراد سواء أكان الفاعل مفردا أم مثنى أم جمعا، ويجوز أن يتوافق الفعل مع فاعله إذا تقدم الأخير عليه فيقال : الطالب حضر أو الطالبة حضرت. الطالبان حضرا أو الطالبتان حضرتا، والطلاب حضروا أو الطالبات حضرن. وفي هذه الحالة يتطابق الفعل مع فاعله في التذكير والتأنيث والإفراد والتثنية والجمع. ولكننا في اللهجات العربية الحديثة نجد الفعل يتقدم على الفاعل وتلحقه (أي الفعل) واوالجماعة سواء أكان الفاعل مثنى أم جمعا للمذكر فيقال في العامية :

أجُو الوَلَدِيْنْ
أجُو لِوْلاد

وكذلك نجد نون النسوة تلحق الفعل مع المثنى أو الجمع المؤنث وذلك إذا لم تلحق الفعل تاء التأنيث فيقولون :

ـ نامَتْ أو نامِنْ البِنْتِيْنْ أو نَمِنْ البِنْتِيْنْ.
ـ نامَتْ أو نَمِنْ البنات.
ـ نَقِّرِنْ صيصانْكِ يا ضَيَّة (أي هل نَقَر الكتكوتُ بيضَه ليخرج منه، وضيَّة اسم امرأة) .

وهذه اللغة يسميها النحاة لغة أكلوني البراغيث حيث نقلت هذه العبارة من كلام العرب وأطلقت على كل لغة مشابهة. وقد ذكر سيبويه هذه اللغة حين قال : «واعلم أن من العرب من يقول ضربوني قومُك وضربـاني أخواك...»[1]وضرب لها شاهـدًا قـول الفرزدق وهو تميمي :

ولكن ديافـيّ، أبـوه وأمـهُ
بحوران يعصـرن السـليطَ أقاربُـه[2]

وكذلك الآية القرآنية : ﴿وأسروا النجوى الذين ظلموا﴾[3]. وفي شرح المفصل يقول : «إذا قلت فأما الزيدان فالالف حرف مؤذن بأن الفعل لاثنين وكذلك إذا قلت قاموا الزيدون فالواو حرف مؤذن بأن الفعل لجماعة وهي لغة فاشية لبعض العرب كثيرة في كلام العرب وأشعارهم وعليه جاء قولهم أكلوني البراغيث..»[4]. ثم يستشهد لها من أشعار العرب.

ونرى السهيلي قبل ابن يعيش يقول : «ألفيت في كتب الحديث المرويَّة الصحاح مايدل على كثرة هذه اللغة وجودتها نحو ما جاء في قول وائل بن حجر في سجود النبي صلى الله عليه وسلم «ووقعتا ركبتاه قبل أن تقعا كفاه» ونحو قوله «يخرجن العوائقُ وذوات الخدور» ونحو «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل»[5].

وقد تكلم في تطابق الفعل مع فاعله أو مع نائب فاعله كثير من النحويين وأتوا بشواهد تدلل بشكل قاطع على وجودها ولا يفوتهم كذلك أن يوجهوا ماورد نحويًا لأنه لا يتفق مع قواعدهم فمنهم من اعتبر الضمائر علامات للتثنية أو الجمع كتاء

التأنيث مثلا والفاعل الحقيقي هو الاسم الظاهر بعد الفعل كقول سيبويه : «فشبهوا هذا بالتاء التي يظهرونها في قالت فلانة فكأنهم أرادوا أن يجعلوا للجمع علامة كما جعلوا للمؤنث وهي قليلة.. وأما قوله تعالى ﴿وأسروا النجوى الذين ظلموا﴾[6] فإنه يجيء على البدل»[7].

أما الأخفش الأوسط فيوجه قوله تعالى : ﴿ثم عمُوا وصمُّوا كثير منهم﴾[8] «ولم يقل ثم عمي وصمّ وهو فعل مقدم لأنه أخبر عن قوم أنهم عموا وصموا، ثم فَسَّر كَمْ صنع ذلك منهم كما تقول : رأيت قومَك ثلثيهم ومثل ذلك : ﴿وأسروا النجوى الذين ظلموا...﴾ وإن شئت جعلت الفعل على لغة الذين يقولون أكلوني البراغيث»[9]. وفي موضع آخر يقول أو يوجه قوله تعالى : ﴿وأسروا النجوى الذين ظلموا..﴾ كأنه قال : وأسروا، ثم فسره بعد فقال : هم الذين ظلموا أو جاء هذا على لغة الذين يقولون «ضربوني قومُك»[10]. وهكذا نرى توجيهه ينصب على المعنى ثم بعدها يرجعها إلى لغة أكلوني البراغيث مرة وإلى لغة ضربوني قومُك التي وردت عند سيبويه مرة أخرى مما يعطي انطباعا قويا بأنه لا ينكر مثل هذه اللغة بل يحمل عليها آيات قرآنية.

وأما الحريري فينقل عن أهل زمانه أنهم يقولون : «قاما الرجلان وقاموا الرجال فيلحقون الفعل علامة التثنية والجمع وما سمع ذلك إلا في لغة ضعيفة...»[11].

وبناء على ذلك يوجه الآيتين السابقتين بقوله «فالذين بدل من الضمير الذي في لفظة أسرُّوا وقيل بل موضعه النصب على الذم أي أعني الذين ظلموا»[11].

أما ابن هشام فيرى أن «أحسن الوجوه في الآية. إعراب الذين ظلموا مبتدأ وأسرُّوا النجوى خبرًا»[12]. وهكذا نجد النحويين لا يوافقون على هذه اللغة في الوقت الذي يذكرون من يتكلم بها من قبائل العرب، فقد عزوها لطيء وأزد شنوءة. ففي شرح الأشموني يقول : «وحكى بعض النحويين أنها لغة طيء وبعضهم أنها لغة أزد شنوءة[13]». وفي شرح التصريح : «وحكى البصريون عن طيء وحكى بعضهم عن أزد شنوءة نحو ضربوني قومك[14]». وفي الهمع «أنها لغة وعزيت لطيء وأزد شنوءة[15]».

وفي المغني[16] ينسبها أيضا إلى بلحارث إضافة إلى طيء وأزد شنوءة وأما رابين فينقل أنها «لهجة الحارث وتستخدم في الحجاز وطيء وأنها لغة نموذجية لغرب الجزيرة العربية»[17].

ولا يكتفون بذكر القبائل التي تتكلم بها بل يجهدون أنفسهم في البحث عن شواهد لها في أشعار العرب وأقوالهم بل وفي القرآن الكريم كما مرَّ بناء وكذلك في الأحاديث الشريفة. وقد تعهد ابن مالك[18] بالاستشهاد لها من أحاديثه صلى الله عليه وسلم حيث يقول (أقصد ابن مالك) :

«من العرب من يقول حضرا أخواك وانطلقوا عبيدُك وتبعنهم إماؤُك، وعلى هذه اللغة قول النبي صلى الله عليه وسلم «يتعاقبون فيكم ملائكة...»[19].

وقول من روى : «وكنَّ نساء المؤمنات »[20] وقول أنس «كن أمهاتي يواظبنني[21]».

أما الشواهد الشعرية التي احتج بها النحاة[22] لهذه اللغة فهي كالتالي :

قال الفرزدق[23] وهو من شواهد سيبويه

ولكن ديافي أبوه وأمه

بحوران يعصرن السليطَ أقاربُه

ومن قول الشاعر :[24] (أمية بن أبي الصلت)

يلومونني في اشتراء النخيـ

ـل قومـي فكلهـم ألـوم

وقول الآخر :[25](عمرو بن ملقط الجاهلي)

ألفيتا عيناك عند القفا

أوْلى فأوْلى لك ذا واقيـة

وقول الآخر :[26]

نصروك قومي فاعتززت بنصرهم

ولو أنهم خذلوك كنت ذليلا

ومثله قول الشاعر :[27]

نُسِيا حاتمٌ وأوسٌ لدن فا

ضت عطاياك يا ابن عبد العزيز

وقول الشاعر :[28]

رأين الغواني الشيب لاح بمفرقي

فأعرضن عني بالخدود النواضر

ومنه قول الشاعر[29](عبد الله بن قيس الرقيات) :

تولى قتال المارقين بنفسه

وقد أسلماه مبعدٌ وحميمُ

وقال عروة بن الورد :[30]

ذريني للغنى أسعى فإني

رأيت الناس شرهم الفقير

وأحقرهم وأهونهم عليه

وإن كانا له نسبٌ وخيرُ

ومنه قول الشاعر :[31]

يلومونني في حب ليلى عواذلي

ولكنني من حبها لعميد

ونجد مثل هذه اللغة عند أبي فراس الحمداني في قوله[32] :

نستج الربيع محاسنا

ألقحنها غر السحائب

وهكذا بعد كل هذه الشواهد العربية تأبى الصيغة النحوية مثل هذه اللغة فجلبت الحيرة للنحاة في بحثهم عن الوظيفة النحوية للضمائر أو للأسماء التي تليها حيث رأوا في هذه اللغة خروجا عن الأصل الذي أرسوا على أساسه قواعدهم فرميت بالقلة تارة وبالضعف تارة أخرى. وقد نسبوا هذه اللغة لأكثر من قبيلة عربية وكانت شواهدهم لشعراء لاينتمون لهذه القبائل فالفرزدق تميمي وابن أبي الصلت ثقفي وابن قيس الرقيات قرشي وعروة بن الورد عبسي عدا الأشعار المجهول قائلوها، وبناء عليه نستطيع أن نقول أنها لغة فاشية في الجزيرة العربية استنادا إلى عدة اعتبارات.

أولها : أنها عزيت إلى عدة قبائل وإن كان أغلبها ينتمي إلى غرب الجزيرة العربية كأزد شنوءة وبلحارث بن كعب إلا أنها أيضا نسبت إلى طيء وجاءت على لسان شاعر تميمي وهو الفرزدق. وطيء قد شغلت جزءا من وسط الجزيرة وشمالها الشرقيين، ومنازل تميم معروفة في شرق الجزيرة العربية، كذلك نجد رابين قد عزاها إلى ضبَّة ومنازلها في وسط الجزيرة إلى الجنوب، ويحتمل أن تكون الأشعار المجهولة القائل لشعراء من قبائل أخرى.

وثانيا : إن اللغات السامية القديمة قد اصطنعت هذه اللهجة،[33] فاللغة السريانية على حد قول أنيس فريحة[34] قد تركت أهم أثر في تركيب لهجة لبنان المسمى في اللغة العربية لغة أكلوني البراغيث.

ثم إن «العبرية تلتزم عادة بمطابقة المسند والمسند إليه في الإفراد والجمع والتذكير سواء أكانت الجملة فعلية أواسمية»[35] وهو ما يؤيده الدكتور عبده الراجحي بقوله : «إن هذه الظاهرة هي القاعدة المطردة الآن في العبرية مثل Kathevū hayyiladiem أي كتبوا الأولاد».[36]

ويبدو أن الدكتور حسن عون يسير في الاتجاه نفسه أي اعتبار أن ظاهرة التطابق بين الفعل وفاعله

هي ظاهرة لغوية عامة حيث يقول إن هذه الظاهرة قد «انتهى أمرها على أيدي جمهرة النحاة إلى أن الأصل في الفعل أن يبقى على حالة الإفراد مع تثنية فاعله الظاهر أو جمعه أما نحن (يقصد نفسه) فنرى أن الأمر على عكس ذلك وأن الفعل كان يطابق فاعله في التثنية وفي الجمع بمعنى أن العرب كانوا يقولون قام الولد، وقاما الولدان، وقاموا الأولاد قبل أن يقولوا قام الولدان وقام الأولاد».

ويستدل على ذلك بأن المنطق اللغوي يتطلب ذلك بل ويفترضه ويؤيده. فالتنسيق بين اللفظ وما يتبعه من ناحية الإفراد والتثنية والجمع وكذلك من ناحية التذكير والتأنيث أمر طبيعي لا يفتقر إلى إعمال فكر ولا إلى مجهود ذهني بينما عدم التنسيق أو عدم المطابقة يحتاج إلى هذا العمل الذهني حتى يفهم المقصود، من التركيب اللغوي، مستشهدا على ذلك بما جرى في اللغات المعربة الهندية الأوروبية كاليونانية واللاتينية قديما واللغة الألمانية حديثا وكذلك استند إلى التراكيب أو النصوص العربية التي احتفظت بها اللغة كرواسب من الاستعمالات القديمة وينحو باللائمة على النحاة الذين لا يأبهون بتاريخ الصيغ اللغوية[37]. وعلى ذلك فظاهرة التطابق تتفق مع الفطرة والسليقة اللغوية البدائية ويرى أن السبب في العدول عن التطابق هو أن «مبدأ الاقتصاد اللغوي والإيجاز في التعبير من أبرز سمات اللغة العربية[38]».

وثالثا : إن اللهجات العربية المعاصرة في شتى البلاد العربية تطابق بين الفعل وفاعله. ففي أقطار الخليج نجد قولهم :

أيخون[39] هَلْ بَحْرين (ويأتي البحرينيون)
عَوَّدَوْ آل خَلِيفَ

ونجد السوداني يقول :

كَتَلُوْه الرُّجال[40] (أي قتلوه الرجال)

وفي مصر يقولون :

سقْطُو العِيَال (رسب الأولاد)

وبدو الساحل الشمالي الغربي في مصر[41] يقولون :

قَالُو لي هَلِي ... (قال لي أهلي)
ويغْلِبْها الخِيل، (تغلبها الخيل)

ولهجة أهالي مناطق ليبيا الشرقية لها سمات لهجة الساحل الغربي لمصر.

أما عن التوافق في التذكير والتأنيث فنجد في العامية الحديثة قولهم :

لِبْسَتْ البِنِتْ ثُوْبَهَا أو البِنِتْ لِبْسَتْ ثُوبها
الوَرْدِهْ تِتكَبَّرْ شَوَيِّ شْوَيِّي (تكبر الوردة شيئًا فشيئًا)

وهكذا يؤنثون الفعل بإدخال تاء التأنيث في آخر الفعل الماضي، ويدخلونها في أول المضارع وذلك مع المفردة المؤنثة كذلك، مع جمع الإناث نجدهم يقولون :

اِلنِسْوَان رَاحَتْ (راحت النساء)
خَواتَكْ رَحِنْ يُخْبِزِنْ أو راحتْ تُخْبِزْ
(أخواتك رحن يخبزن أو راحت تخبز)

أي يؤنثون الفعل مع جمع الإناث للعاقل بالتاء أو بنون النسوة وأما جمع الاناث لغير العاقل فيؤنث بالتاء فقط :

السَّيَّاراتْ راحَتْ
الشوارعْ خِرْبت
تْكَسَّرتْ الشَّبابِيكْ

ومما يجدر ذكره أن المثنى المؤنث يعامل معاملة الجمع مذكرا أو مؤنثا حيث يمكن أن يقال :

البِنْتِيْنْ قاموا أو قاموا البِنْتِيْنْ (قامت البنتان)
أو يقال : البنتِيْن قِمِنْ أو قِمِن البنتين

وأما المثنى المذكر فيعامل معاملة الجمع المذكر فقط لقولهم :

الوَلَدِيْنْ رجْعُوا
لِكْتابِيْنْ تْمَزَّعُوا

وفي رأينا أن هذه الظاهرة قد انتقلت من اللغة السامية الأم إلى اللغات التي تفرعت عنها كالعربية والسريانية والعبرية، بدليل ظهورها في هذه اللغات، خاصة العربية التي انتقلت هذه الظاهرة إلى لهجتها القديمة وامتدت إلى لهجاتها الحديثة واستقر أمرها كما نتعامل به في خطابنا اليومي.

الهوامش

(1) الكتاب، 236/1.
(2) الديوان : ص 50.
(3) 3 ـ الأنبياء.
(4) ابن يعيش : 87/3.
(5) شرح المفصل : 88/3.
(6) 3 ـ الأنبياء.
(7) انظر الكتاب 236/1.
(8) 71 ـ المائدة.
(9) معاني القرآن : 262/1.
(10) المرجع السابق : 410/2.
(11) درة الغواص في أوهام الخواص : ص108، ص 109.
(12) شذور الذهب : 176-179.
(13) شرح الأشموني : 171/1.
(14) شرح التصريح على التوضيح : 275/1.
(15) الهمع : 160/1.
(16) ابن هشام : مغني اللبيب : 404/1.
(17) Rabin, Ancient West Arabian P.97
(18) شواهد التوضيح والتصحيح : ص 191-193.
(19) أخرجه البخاري في كتاب مواقيت الصلاة.
(20) أخرجه البخاري في كتاب مواقيت الصلاة ـ باب وقت الفجر.
(21) أخرجه البخاري في كتاب النكاح، باب الوليمة حق.
(22) انظر سيبويه : الكتاب 236/1، وشرح المفصل : 87/3-89، وشواهد التوضيح والتصحيح، ص 192-193 ومغني اللبيب 404/1-407 وشذور الذهب : 176-179. شرح الاشموني : 170/1، 33/2، والتصريح على التوضيح 275/1-277، البحر المحيط 297/6، والهمع : 160/1 وشرح شواهد ابن عقيل للشيخ عبد المنعم الجرجاوي 103-104 وبهامشه فتح الجليل بشرح شواهد ابن عقيل للعدوي 103-104.

(23) الديوان ص 50.

(24) الديوان : ص 16 ولكن يروى يعذل بدلا من ألوم.

(25) شرح التصريح على التوضيح : 275/1.

(26) مجهول القائل.

(27) مجهول القائل.

(28) أبو عبد الرحمن محمد بن عبد الله العتبي : شرح شواهد ابن عقيل وبهامشه فتح الجليل بشرح شواهد ابن عقيل : ص 104.

(29) الديوان ص 196.

(30) شرح التصريح على التوضيح : 277/1.

(31) مجهول القائل.

(32) شرح التصريح : 276/1، الديوان ص 52.

(33) من أصول اللهجات العربية في السودان : ص 87.

(34) محاضرات في اللهجات وأسلوب دراستها : ص 78.

(35) بين العربية ولهجاتها والعبرية : ص 171.

(36) اللهجات العربية في القراءات القرآنية : ص 188.

(37) انظر دراسات في اللغة والنحو العربي : ص 51 ـ 52 بتصرف.

(38) المرجع السابق : ص 53 .

(39) انظر دراسات في لهجات شرقي الجزيرة العربية : جونستون. وهم خاصة في المدن يلفظون الجيم ياء فاختار المترجم الدكتور الضبيب أن يرمز لهذا الصوت بـ «ج»انظر ص 22، ص 317 .

(40) من أصول اللهجات العربية في السودان : ص 86 .

(41) لهجة البدو في الساحل الشمالي لجمهورية مصر العربية : ص 176 ـ ص 178.

المراجع مرتبة أبجديا :

1 بين العربية ولهجاتها والعبرية : محمد بحر عبد المجيد، مكتبة سعيد رأفت 1977.

2 ـ تفسير البحر المحيط : لأبي حيان الاندلسي، دار الفكر ط 1398,2 هـ 1978.

3 ـ دراسات في اللغة والنحو العربي : د حسن عون، معهد البحوث والدراسات العربية العالية ـ جامعة الدول العربية.

4 ـ دراسات في لهجات شرقي الجزيرة العربية : جونستون ت.م ترجمة وتقديم وتعليق الدكتور أحمد محمد الضبيب، ط 1 جامعة الرياض ، الرياض 1395هـ ـ 1975 م.

5 ـ دره الغواص في أوهام الخواص : الحريري، تعليق هنريك توربابك نيبزج 1871 م.

6 ـ ديوان أبي فراس الحمداني، تحقيق سامي الدهان، نشر المعهد الفرنسي، دمشق بيروت 1363 هـ ـ 1944 م.

7 ـ ديوان أميه بن أبي الصلت، تعليق فردريك دلتيزش، ليبزج 1911 م.

8 ـ ديوان عبد الله بن قيس الرقيات : تحقيق محمد يوسف نجم، دار صادر بيروت 1378 هـ.

9 ـ شرح الاشموني على ألفية ابن مالك : تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط 1، مكتبة النهضة العصرية، مصر 1375 هـ ـ 1955 م.

10 ـ شرح التصريح على التوضيح : وبهامشه حاشية العليمى الحمصي، مطبعة محمد مصطفى، 1312 هـ.

11 ـ شرح ديوان الفرزدق : عبد الله الصاوي، ط 1، المكتبة التجارية الكبرى 1354 هـ 1936 م.

12 ـ شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب : تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد 1355 هـ.

13 ـ شرح شواهد ابن عقيل للجرجاوي وبهامشه فتح الجليل للعدوي، دار إحياء الكتب العربية، مصر، بلات.

14 ـ شرح المفصل : موفق الدين يعيش بن علي، عالم الكتب، بيروت، ومكتبة المتنبي، القاهرة، بلات.

15 ـ صحيح البخاري : الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، بيروت، بلات.

16 ـ الكتاب : سيبويه، ط 1، المطبعة الأميرية، بولاق، 1316 هـ.

17 ـ اللهجات العربية في القراءات القرآنية : عبده الراجحي، دار المعارف مصر 1969 م.

18 ـ لهجة البدو في الساحل الشمالي لجمهورية مصر العربية : دار المعارف مصر، 1981 م.

19 ـ محاضرات في اللهجات وأسلوب دراستها : أنيس فريحة، معهد الدراسات العربية العالية، جامعة الدول العربية، 1955.

20 ـ معاني القرآن : الأخفش الأوسط.

21 ـ مغني اللبيب عن كتب الأعاريب : تحقيق الدكتور مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، ط 2، دار الفكر، 1969 م.

22 ـ من أصول اللهجات العربية في السودان : ط 1، مكتبة غريب، القاهرة، 1966 م.

23 ـ Ancient West Arabian ; Rabin (chaim) Taylors Foreign press. London 1951. -